

كتابات عديدة تناولت تجربة الملك المؤسس وما أحدثه من تغييرات ومنجزات كثيرة

# مكة تدخل مرحلة الازدهار والتنمية وال عمران

شهدت مكة توسعاً هائلاً في خطوط الهاتف وأعمال البرق والتلكس والبريد وتحسين الخدمات البرقية



مكة عام 1951 بعدما شهدت توسعاً كبيراً في العمران

جوانب من إسهامات الملك عبد العزيز آل سعود في التطور الحضاري لمكة المكرمة خلال بداية القرن العشرين

الحلقة 5 من 5



د. نواف عبد العزيز الجمحة  
استاذ مشارك - الهيئة العامة للتعليم التطبيقي  
كلية التربية الأساسية - الكويت

لقد منّ الله سبحانه وتعالى على عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود وأكرمه بمسؤوليته عن البيت الحرام في هذه الفترة التاريخية. وأظهر رحمته الله، انطلاقاً من اقتدائه بهدي الرسول ﷺ، وبسننه وسنة الخلفاء الراشدين من بعده رضوان الله عليهم، وجرياً على تنافس خلفاء وأمراء وسلطين وملوك المسلمين عبر التاريخ على العناية بمدينة مكة المكرمة. فقد أبدى اهتماماً يسترعي الانتباه ببيت الله الحرام، بغية الأجر والمنوية متمثلاً لأمره تعالى (وَأَذِّنْ لِلْعَذَابِ) وكان من شأنه أن لا يتشارك بي شيئاً وأظهر بيته للثلاثين والفائمين والركع السجود (سورة الحج، آية 26).

ومن هذا المنطلق، وفي هذا الإطار الأخير يدخل موضوع هذا البحث الذي سينمى التركيز فيه على الإسهامات والعطاءات التي تتعلق أساساً بالمجالين المدني والديني اللذين حققهما الملك عبد العزيز وتميز بهما خلال بداية القرن العشرين، وكذلك على الانطباعات الجديدة التي تركها في نفوس المسلمين وقتئذ. أملياً أن نسهم في إلقاء بعض الضوء على جانب طالما أغفله بعض المهتمين بدراسة التطور الحضاري الذي بلغته مكة المكرمة في هذه المرحلة التاريخية.

اشترى الملك عين الجديدة وأدخلها إلى مكة لسقيا أهلها

وقاصدي بيت الله الحرام

وسميت فيما بعد بعين العزيزية

تخليداً لذكرى مجربها

أمر بإنشاء مصنع لكسوة الكعبة

وأنتج المصنع أول كسوة سعودية

عام 1927 وكانت من الحرير الأصلي

أدى الازدهار الذي عرفته مكة

المكرمة والتوسع في العمران

في عهد الملك المؤسس لنمو

التجارات والصناعات وتعددها

وضع تنظيمات كانت لها

انعكاسات في وصول أعداد

متزايدة من الحجاج ولاقت

الاستحسان بحكم قابلية أهل

مكة للتطور الحضاري

في مجال تعمرات المياه:

في 1344هـ أمر الملك بتعمير عين زبيدة<sup>(87)</sup> على نفقته الخاصة إثر السيل الذي ضرب حرزات العين وانقطع الماء عن الوصول إلى مكة مدة 3 أشهر<sup>(88)</sup>. وفي 1370هـ اشترى الملك عين الجديدة وأدخلها إلى مكة لسقيا أهلها وقاصدي بيت الله الحرام سميت فيما بعد بعين العزيزية تخليداً لذكرى مجربها<sup>(89)</sup>. وفي 1366هـ أمر الملك بعد عودته من زيارة مصر بحلب الماء إلى جدة من عيون (مر الظهران) وادي فاطمة على نفقته الخاصة فأختير منها 8 عيون وقد أجريت إلى جدة باتانيب وسميت بعين العزيزية تخليداً لذكرى الملك عبدالعزيز<sup>(90)</sup>.

وفي مجال الاتصالات:

شهدت مكة توسعاً هائلاً في خطوط الهاتف وأعمال البرق والتلكس والبريد وقد تجلى هذا التوسع في زيادة عدد الهواتف بالإضافة إلى فتح المراكز البريدية وتحسين الخدمات البرقية والتلكس<sup>(91)</sup>.

لاحظ الحاج المغربي الحسن بن الطاهر أن أوضاع الحجاز تتغير بتوفير أسباب الراحة والترفية لهم فهو عاين استخدام اللاسلكي في الاتصالات بين مناطق المملكة (في حائل مكة لاسلكية زرتها هذا الصباح أسست 1351هـ يرأسها هاشم المدني)<sup>(92)</sup>.

وفي مجال الصحة:

عظمت الدولة عناية خاصة بتطوير وسائل المعالجة الصحية الطبية ومكافحة الأوبئة التي كانت تنتشر عادة بعد موسم الحج، واستعان على مهمتها ببعض الاتفاقيات الدولية التي مكنتها من تعميم العيادات الطبية (الكريبتات) والمستشفيات من مثل: أحياد القبان والشبيكة والمعالجة ومستشفى الصحة في منى للعناية بالحجاج<sup>(93)</sup>. وتجدر الإشارة إلى أن الخدمات الطبية في موسم الحج كانت تقدم بلا مقابل<sup>(94)</sup>. وإلى جانب ذلك فقد اهتمت الدولة

اهتمت الدولة اهتماماً كبيراً بالإجراءات الوقائية الخاصة بالحجاج من التطعيم وأماكن الإقامة والنظافة العامة وكانت الخدمات الطبية في موسم الحج تقدم بلا مقابل

تسلم إرثاً مثقلاً بالتبعات والمشاكل فبرهن على كفاءة نادرة في تحمل مسؤوليته التاريخية التي منها قضايا السياسة الداخلية فضبط الإدارة والإطلاع على شؤون الرعية

اهتماماً كبيراً بالإجراءات الوقائية الخاصة بالحجاج ومن أمثلتها: التطعيم، وأماكن الإقامة، والنظافة العامة، وعناية المطوفين بشؤون حجاجهم وتوعيتهم<sup>(95)</sup>.

وفي مجال الصناعة:

بخصوص أهل مكة الذين اشتغلوا في مجال الصناعة، فالمعلومات قليلة في المصادر. لكن رغم ندرة الصناعات والحرف اليدوية فهي أمثلة حية ومباشرة عرف عن أصحابها تضلعهم ببعض الصناعات والاشتغال في مجالها كحركة رئيسة لمصدر رزقهم، ظهر أثر الجوارين (الهنود نمونجا) في مختلف فروع الصناعات وعلى الخصوص مجال النسيج والتطريز وصنوف الحياكة وتلوينها والشخصية التي أثرت في هذه الصناعات هي شخصية عبدالعزيز آل سعود الذي أمر بإنشاء مصنع لكسوة الكعبة في صفر 1396هـ/ أغسطس 1927م، وقد أنتج المصنع أول كسوة سعودية في منتصف ذي القعدة/ أوائل مايو من العام المذكور، وكانت من الحرير الأصلي، فكانت سائر الكعبة (الأحمال) من الحرير الأسود<sup>(96)</sup>، وقد كتب على الجانب الرابع من الحزام: «هذه كسوة صنعت في مكة المكرمة بأمر خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود عام 1346هـ»<sup>(97)</sup>.

وقد كسيت الكعبة في 9 من ذي الحجة 1346هـ/ 28 مايو 1928م بتلك الكسوة التي تعد أول كسوة تصنع في مكة<sup>(98)</sup>. ولا شك أن تلك الخطوة كان أثرها مهماً للغاية، وأدت إلى القضاء على الآثار السلبية التي كان سببها يعود إلى المعتقدات والأوهام الباطلة والمربطة بتعظيم رمزية المحمل الشريف (= المحمل المصري)<sup>(99)</sup> كما أعانت على إحلال الصناعة المكية بدلا من الصناعة المصرية - ففي عصر آل سعود «مكة تكتسي من ذاتها».

ومن نافذة القول إن الازدهار الذي عرفته مكة المكرمة والتوسع في العمران وظهور طبقة من الموسرين في عهد عبدالعزيز آل سعود، كل ذلك أدى إلى نمو التجارات والصناعات وتعددها واتجاهها إلى إرضاء الرغبة في الحصول على الكماليات ووسائل الترف.

3- خلاصات واستنتاجات:

من كل ما تقدم يمكن استخلاص ما يلي:

- إن ما كان يجري في الديار الحجازية في ظل السيطرة العثمانية والشرفية من تحولات سياسية واجتماعية جارفة عصفت بالكثير من الثوابت الدينية والقواعد الأخلاقية لما يعده الرجال الزائر قوام كل عدل اجتماعي واتزان سلوكي ومناط كل سمو روحي ورفي حضاري، وهي

والترفيه في أداء المناسك. ● لا مرأى في أن هذه الكتابات، لاسيما تلك التي تناولت تجربة الملك عبدالعزيز آل سعود وما أحدثته في مكة المكرمة من تغييرات أثرت بشكل مباشر أو غير مباشر في توجيه الحكومات لإرسال الحجاج إلى مكة في كل عام، وقد تواصل الإنفتاح على مكة في فترات لاحقة. ● وضع الملك عبدالعزيز تنظيمات كان لها انعكاسات في وصول أعداد متزايدة من الحجاج، ولا شك أنها لاقت الاستحسان وذلك بحكم قابلية أهل مكة للتطور الحضاري، وتنجلي الصورة في حرص الملك على مشاركة أهل مكة في إقامة الإجراءات التحديثية للحجاج.

● إن جل مدوني الرحلات الحجبة، حينما كتبوا عن الحجاز استحضروا أساساً مكة المكرمة نظراً لتقلها الديني والحضاري وكونها المكان المقدس والبؤرة الجاذبة - إذ كان حضور مكة قويا في مدونات الرحالة، ومن ثم فالأحكام التي طالت الحجاز كلها تأسست على ما يمكن أن نسميه (النموذج المكي).

● رحلة الملك للحجاز تمت في لحظة القوة والثقة بالنفس، لهذا ينبغي أن نلاحظ ما قام به من زاروا الحجاز في بداية القرن العشرين للفت انتباهنا إلى ما كان يجري ببلاد الحجاز وخاصة بمكة المكرمة من تجارب تحديثية وإجراءات إصلاحية. من الختام تكون قد اكتشفنا من خلال تأملاتنا في المصادر المعاصرة جوانب أساسية في شخصية الملك عبدالعزيز آل سعود. لقد تسلم إرثاً مثقلاً بالتبعات والمشاكل فبرهن على كفاءة نادرة في تحمل مسؤوليته التاريخية التي منها قضايا السياسة الداخلية. فضبط الإدارة والإطلاع على شؤون الرعية وإقامة العدل ونشر الأمن ومحاولة تخفيف الضائقة عن الفقراء، كل ذلك يشكل جانبا ضخما في عمل حاكم، ولا يستطيع أن يقوم به على الوجه الأكمل إلا إذا كان ذا شخصية قوية، ولعل صدق عبدالعزيز آل سعود في تدنيه حقق له ذلك النجاح.

التحولات التي أكدت معظم المدونات والدراسات أنها كانت السبب فيما آلت إليه الأوضاع العامة في مكة من اضطراب واختلال. ● بالنسبة للرغبة السامية في التطور والتغيير في عهد الملك عبدالعزيز، من خلال الروايات النصية التي يعرض بعضها بعضا، يصح أن نطلق على هذه الرغبة مشروعاً حضارياً لأنها تابعت مشروع جل الخلفاء الأولين في العصور الإسلامية السالفة، ولم تكن لتظهر خطواتها إلا بعد خروجها إلى حيز التنفيذ، وإذا قررنا تحقق المشروع قررنا معه وجود رغبة رسمية بالفعل، تواترت النصوص بحصولها وعلى امتداد عهود 5 ملوك من آل سعود، تمتد إلى وضع مكة المكرمة في يومنا الحاضر.

● إن أغلب الرحالة الحجاج الذين زاروا مكة في بداية القرن العشرين أظهروا إعجابهم «بالتنظيمات والمستحذات، التي استفادوا من خدماتها لأول مرة من خلال إقامتهم بمكة، وعقد مقارنته بين ما كان وما حدث في ذلك الوقت.

● إن معاناة الحجاج للمستحذات في مكة واستفادتهم منها (التلغراف، السيارات، المطبعة) خفف أحياناً من حدة النفور من هذه المستحذات التي وضعها الآخر الأوروبي بل إن عددا من المدونات تضمنت عبارات الانبهار والإعجاب، ورغبة دفينة في إدخالها لتوفير حالة الراحة

(93) مراكز الصحة العامة والإسعاف في أيام الحج في مكة وعرفات، أم القرى، س، 5، ع 226، ص 2، س 5، ع 228، ص 4.

(94) البرنامج الصحي لحج سنة 1345هـ، أم القرى، س 3، ع 130، ص 3.

(95) انظر إلى: منى القحطاني، التنظيمات الداخلية، ص 404 - 471.

(96) كتب على الحرير «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وفي أسفل التجويفة «بِإِذْنِ اللَّهِ»، وفي الضلع الأيمن «جَلْ جَلالَهُ»، وكذلك في أعلى الضلع الأيسر «جَلْ جَلالَهُ». منى القحطاني، التنظيمات الداخلية، ص 252.

(97) الدقن، السيد محمد، كسوة الكعبة العظيمة عبر التاريخ، ط 1، ص 208.

(98) كان الحزام مطرزاً باللصق الفضي المموه بالذهب، والكتابات التي عليه بخط بدعي من عمل الرسام الفني محمد أديب أفندي، أما الكتابات التي تثبتت على لحزام

(87) عين زبيدة: تبدأ من أعلى وادي النعمان، وتستخدم مياهها لتأمين مياه الشرب في مكة، عثمان مصطفى نوري، الماء ومسيرة التنمية في المملكة العربية السعودية، جدة، تهامة، 1983، ص 106.

(88) محمد طاهر الكردي، التاريخ القويم لمكة المكرمة وبيت الله الكريم، مكة، مطبعة النهضة الحديثة، 1385هـ/ 1412هـ 16/ 87.

(89) يقول الشريف محمد بن منصور آل عبدالله بن سرور صاحب كتاب «العيون في الحجاز وبعض أوديته» إن الملك عبدالعزيز - رحمه الله - هو أول ملك من ملوك المسلمين بعد السيدة زبيدة يبتاع عبنا ويدخلها مكة المكرمة لسقياها وسقيا حجاج بيت الله الحرام أما من كان قبله فكان جل اهتمامهم ينصب على إصلاح عيون زبيدة إذا خربت - ويضيف أيضا أن عين الجديدة (العزيزية) أول عين تدخل مكة بعد «عين زبيدة».

الشريف محمد بن مساعد الحسني، درر الجامع الثمين لأعمال الملوك من آل سعود الميامين في مسجد البلد الأمين 1343هـ/ 1418م، مكة المكرمة، مكتبة النهضة الحديثة، 1419هـ، ص 14، ع 20، تعليق 15.

(90) يذكر لنا خير الدين الزركلي، شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز وصفاً لمراحل إنشاء عين العزيزية، ج 3، ع 945.

(91) محمد محمود السرياني، مكة المكرمة - دراسة في تطور النمو الحضري، مجلة الجمعية الجغرافية الكويتية، 1986، ع 87، ص 33.

(92) الحسن بن الطاهر وعزير، رحلة 1351هـ عبدالكريم كريم، صورة الملك عبدالعزيز آل سعود من خلال بعض الرحلات المغربية إلى شبه الجزيرة العربية في عدة أقاليم (1348-1356هـ/ 1930-1938م)، ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، الرياض، داره الملك عبدالعزيز، ج 1، ع 1421، ص 499.